الفصل الثاني

نظريات تفسير الحضارات

- تمهيد
- **أولًا:** متى يبدأ الإنسان في بناء حضارته؟
- **ثانيًا:** هل الحضارات الإنسانية حضارات متصلة أم منفصلة؟
- **ثالثًا:** نظريات تفسير الحضارات

١- نظرية البيئة *Environmental theory*

٢- نظرية فيكو *Giovanni Battista Vico Theory*

٣- نظرية الجنس أو العرق *Theory of race or Gender in English*

٤- نظرية تشبيه الحضارة بالكائن الحي أو نظرية شبنجلر
Theory of the analogy of civilization to the organism
Or Spengler›s theory

٥- نظرية التحدي والاستجابة عند «أرنولد توينبي»

٦- نظرية اتجاه الزمن وتقويم الحركة
Time trend theory and movement calendar

٧- النظرية المادية *Physical theory*

٨- النظرية الدينية *Religious Theory*

تمهيد

تعددت نظريات تفسير الحضارات، كل حسب إيمان الفيلسوف والمؤرخ بأيديولوجيته وتوجهه الفكري والفلسفي والتاريخي، وقبل أن نخوض في هذه النظريات دعنا نذكرك عزيزي القارئ بقول الفيلسوف الأمريكي جون ديوي في كتابه «المدرسة والمجتمع ١٩٧٨»: «ودراسة التاريخ لا تعني كتلة من المعلومات ولكنها تعني استعمال المعلومات في خلق صورة حية وبنّاءة لما قام به الناس، وكيف قاموا به، ولماذا قاموا به على هذه الصورة، وكيف نالوا نجاحهم أو منوا بالخيبة في عملهم»[1]. وهذا ما يجعلنا نتساءل:

(١) جون ديوي: المدرسة والمجتمع، ترجمة: أحمد حسن الرحيم، مراجعة، محمد ناصر، تصدير، محمد حسين آل ياسين، بيروت-لبنان، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، ١٩٧٨، ص١٥١.

أولًا
متى يبدأ الإنسان في بناء حضارته؟

يبدأ الإنسان في بناء حضارته حين ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الحقوق، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذٍ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها[1].

(١) وول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الأول، ص٣.

ثانيًا

هل الحضارات الإنسانية حضارات متصلة أم منفصلة؟

الحضارات الإنسانية حضارات متصلة فكل حضارة تستفيد من الحضارات التي تسبقها وتؤثر في الحضارات التي تليها.

الحضارة تسير كما تسير الشمس فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر[١].

أو كما قال ول ديورانت: «إن الحضارة لا تموت، ولكنها تهاجر من بلد إلى بلد، فهي تغير مسكنها وملبسها، ولكنها تظل حية، وموت إحدى الحضارات كموت أحد الأفراد، يتسع المكان لنشأة حضارة أخرى، فالحياة تخلع عنها غشاءها القديم، وتفاجئ الموت بشباب غض جديد»[٢].

(١) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، بيروت، دمشق، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٢، ص٢٠.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثامن، ص٢١١.

ثالثًا

نظريات تفسير الحضارات

تعددت نظريات تفسير نشوء الحضارات وانهيارها وكان من بين هذه النظريات؛ نظرية البيئة، ونظرية فيكو، ونظرية الجنس أو العرق، ونظرية تشبيه الحضارة بالكائن الحي أو نظرية شبنجلر، ونظرية التحدي والاستجابة «أرنولد توينبي»، ونظرية اتجاه الزمن وتقويم الحركة، والنظرية المادية، والنظرية الدينية، وغيرها مما لا نستطيع أن نحصيها، ويمكننا أن نعرض لهذه النظريات على النحو التالي:

١- نظرية البيئة *Environmental theory*:

تذهب نظرية البيئة إلى تأكيد دور عامل البيئة في نشوء الحضارة، وقد ظهرت هذه النظرية عند مفكري اليونان منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وربما كان لظروف العالم اليوناني آنذاك دور في تبني هذه النظرية، إذ تميز العالم اليوناني وقتها بتعدد ثقافاته وقلة تنوع شعوبه، الأمر الذي جعل مفكري اليونان يعزون تنوع الثقافات إلى عامل بيئي فقالوا بأثر الجو والماء والموقع على الإنسان في خلقه وتفكيره، وميزوا على سبيل المثال بين أهل الجبال الذين وصفوهم بالبنية الضخمة والشجاعة والقدرة على الاحتمال ونقاء اللون، وأهل الأراضي المنخفضة الحارة الرطبة الذين وصفوهم بالأجسام الكبيرة المترهلة والألوان القاتمة وسرعة الغضب وضعف الاحتمال[١].

وقد تأثر ابن خلدون في مقدمته بنظرية البيئة وأورد كثيرًا من الأحكام المبنية عليها، فذكر أثر البيئة على جلد الإنسان سوادا و بياضا، وعلى العيون زرقة وغير زرقة، وعلى الشعر صهوبة وغير صهوبة، وعلى البدن في لونه صفاءً وانكسافًا وغلظة ولطافة ورقة، وعلى الشكل نقاءً وبشاعة، وعلى الخلق حسنًا وقبحًا، وعلى التدين قوة وضعفا، وعلى العقل فطنة وذكاءً وبلادةً وغباءً. وميّز بين أثر الأقاليم المعتدلة في ذلك وأثر المنحرف منها، وقال: إن

(١) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

اعتدال مناخ الإقليم يجعل حياة الناس فيها معتدلة فأهله أعدل أجسامًا وأخلاقًا على عكس أهل الأقاليم المنحرفة، فالدين عندهم مجهول والعلم مفقود وأحوالهم قريبة من أحوال البهائم بأمزجتهم وأخلاقهم[١].

تقييم النظرية:

إن القول بارتباط الحضارة بالبيئة ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب: مجانب للواقع، إذ يقتضي هذا القول أن كل بيئتين متشابهتين لا بد من أن تقوم عليهما حضارتان متشابهتان وهو ما لا يؤيده دليل تاريخي، فضلًا عن أن بروز دور البيئة وأثرها علي الإنسان كان أوضح في الماضي منه في الحاضر، أما اليوم فالناس يعيشون في عصر تتجلى فيه زيادة قوة الإنسان وقدرته في تسخير البيئة لأغراضه والانتفاع منها لمصالحه، مما لا يجعل أدنى شبهة للتعلق بنظرية البيئة واعتبارها المسئول عن نشوء الحضارة، هذا فضلًا عن دور النظم الفعالة في حياة المجتمع وتأثيرها فيه[٢].

كما لا ترتبط الحضارة في نشأتها بعوامل البيئة وحدها، فليس صحيحًا أن البيئة السهلة هي التي تنبثق منها الحضارة. فإذا كان نهر النيل علة الحضارة المصرية القديمة فإنه كان يجب أن تنشأ الحضارات في بيئات من الطراز النيلي، وإذا كانت حضارة ما بين النهرين تؤكد ذلك فإن عدم قيام حضارة في وادى الأردن يدحضها، وإذا كانت بيئة الأمازون قد أنتجت الحضارة الأندينية فإنه في نفس خط العرض ونفس الظروف البيئية لم تقم حضارة. والحضارة الصينية سليلة النهر الأصفر، ولكن حوض الدانوب مع التشابه في المناخ والتربة قد أخفق في إنجاب الحضارة[٣].

٢- نظرية فيكو *Giovanni Battista Vico Theory*:

قام الفيلسوف الإيطالي جان باتيستا فيكو (١٦٦٨-١٧٤٤م) بدراسة التقاليد الميثولوجية والأساطير الشعبية والقصائد القديمة مثل قصائد هوميروس والتشريعات البدائية

(١) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) حسين مؤنس: الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨، ص٤٢.

مثل تشريعات الاثني عشر لوحًا، وانتهى من ذلك إلي وضع نظرية «الدورات التاريخية» في كتابه «العلم الجديد ومبادئ فلسفة التاريخ»[١].

حاول فيكو من خلال النظرية أن يبين القوانين التي يتعين بها مصير الشعوب من نشأتها وتقدمها ورقيها إلى انحطاطها ونهايتها، فقال بوجوب قوانين واحدة تدخل في تشكيل الشعوب ويشعر بوجودها طبقة من الناس أو شعب من الشعوب أو أمة من الأمم دون أن يعرف أحدهما الآخر دون أن تكون هذه القوانين ناجمة عن العقل بل تكون آتية عن الحس المشترك أي «الحكم دون تفكير»[٢].

ويري فيكو أن البشرية تمر في تطورها التاريخي حسب التسلسل التالي:

- مرحلة عصر الآلهة، حيث يعتقد الناس أن الآلهة تدبر كل شيء.
- ثم تعقبها مرحلة الدور البطولي، حيث تظهر دور الشخصيات المهمة القوية.
- ثم يليها دور الحقيقة، حيث تسود المساواة الطبيعية بين الناس وتسود القوانين التي يتساوي فيها الجميع.
- ثم تصاب الحضارة بالانتكاس وتعود إلى بربرية جديدة لا تلبث أن تنبثق عنها حضارة جديدة تعود فتنهار وتعود البشرية إلى البربرية وهكذا دواليك[٣].

تقييم النظرية:

إن نتائج فيكو في هذا السبيل، تتعارض مع ما توصل إليه الفلاسفة العقليون الذين يرون المجتمع من صنع الناس العقلاء خلافًا لفيكو الذي لا يتصور وجود عقلاء وفلاسفة قبل وجود دولة وحضارة.

٣- نظرية الجنس أو العرق *Theory of race or Gender in English*:

يستخدم اصطلاح الجنس للتعبير عن توافر بعض صفات مميزة وموروثة في جماعات معينة من البشر، ويرى أصحاب نظرية الجنس اللون الصفة البدنية التي يعوّل عليها أكثر

(١) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

من غيرها، ويرون أن التفوق مسألة ترتبط باللون، وتضع النظرية بهذا الخصوص (السلالة النوردية) على منصة الشرف، وهي السلالة ذات البشرة البيضاء والشعر الأصفر والعيون الشهب والرأس الطويل![١].

يذهب القائلون بنظرية الجنس إلى أن بعض أجناس البشر تصعد؛ أي تتقدم وتزداد قوة؛ لأن جنسها -أو نفرًا من قادته- مهيأ للتقدم، بينما لا تتمتع أجناس أخرى بمواهب كافية للتقدم فيبطئ تقدمها وتميل إلى الركود في حالة من البداوة أو البقاء على مستوى حضاري معين لا تتخطاه. وأن الجماعات البشرية المهيأة بطبعها للتقدم تتميز غالبية أفرادها بخصائص بدنية أو خلقية، أو بدنية وخلقية معا يتوارثها أفرادها بحيث تصبح هذه الخصائص مميزة لها عن غيرها. ويقول علماء الأجناس إن هذه توجد مركبة في طبع الجنس وهيئته بالخلقة. وهذه الخصائص تمكنه من صنع الحضارة أو -إذا استعملنا تشبيه التقدم الحضاري بعملية الصعود على سفح الجبل- أن هذه الأجناس قادرة على التحرك والتسلق إلى أعلى مرحلة بعد مرحلة. وخلاصة رأيهم أن هناك أجناسًا قادرة على صنع الحضارة وأخرى غير قادرة أو ذات قدرة قليلة في هذا الميدان[٢].

والقول بامتياز الأجناس بعضها على بعض شائع عند معظم الأمم في العصور القديمة والوسطى، ولا يزال قائمًا عند أهل الغرب- وخاصة غرب أوربا والولايات المتحدة الأمريكية إلى اليوم- فاليونان كانوا يرون أنفسهم أفضل الأمم وأذكاها وأشرفها وبقية الخلق همج، والرومان جعلوا الروماني فوق غيره بحكم القانون، حتى صاروا إذا أرادوا أن يعرفوا قدر إنسان أو جنس أصدرت لهم الدولة قرارًا بمنحه الجنسية الرومانية. أما أهل الصين فكانوا يؤمنون بأنهم أفضل الخلق وأنه لا وجود لأى حضارة أو فضيلة خارج جنسهم. بل كانوا يرون أنهم لا يحتاجون إلى غيرهم في شيء وليؤكد ملوكهم هذا المعنى أقاموا سور الصين العظيم حتى لا تتدنس أرضهم بأقدام أقوام آخرين. وأما الهنود فشأنهم في تفضيل طبقة البراهمة على غيرها معروف[٣].

---

(١) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

(٢) إبراهيم طلبة سلكها: نظريات نشوء الحضارات، الحوار المتمدن- العدد: ٥٥٤٩ - بتاريخ ٢٠١٧/٦/١٢. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=562011&r=0

(٣) إبراهيم طلبة سلكها: نظريات نشوء الحضارات.

إن جذور النظرية العرقية الحديثة ومنشأها يعود في الحقيقة إلى مرحلة الصراع المستميت بين النبالة المسيطرة والبرجوازية الناهضة التي تهدد سلطانها. فقد كانت هي حجة هذه النبالة ومبررها «القانوني» في رفض المساواة بين البشر والأجناس، وفي مواجهة شعارات الحرية والإخاء والمساواة التي كانت تغزو العقول في كل مكان. فالفرق بين البشر وعدم المساواة في عرف هؤلاء هو النظام الطبيعي وإلغاؤه يعني إلغاء القيم الإنسانية السامية. ومنذ بداية القرن الثامن عشر أي عصر التنوير كتب كونت بولينفلييه (١٧٢٧) كتابًا يردد فيه زعم النبالة الفرنسية بأنها وريث الجنس السائد من الفرانك بينما ينحدر بقية السكان من المقهورين والمستعبدين فثمة عرقان يختلفان كيفا ولا يمكن إلغاء سيادة الفرانك دون إلغاء الحضارة ذاتها[١].

في مستهل القرن التاسع عشر الميلادي، وفي غمار المجادلات التي انبعثت عن الثورة الفرنسية، ودارت حول التفريق بين الغاليين، سكان فرنسا الأصليين، والفرنجة باعتبارهم برابرة مغتصبين، نادى (الكونت دي جوبينو) بنظرية الجنس مدعيا انتماء الفريقين إلى جنس واحد هو الجنس النوردي، وصادف نداء دي جوبينو حدوث كشف لغوي مفادهُ أن جميع اللغات الأوروبية إضافة إلى اللغات اليونانية واللاتينية ولغات فارس وشمال الهند الحية والإيرانية القديمة والسنسكريتية القديمة تنتسب بعضها إلى بعض، وهي أعضاء في عائلة لغوية واحدة واسعة المدى، وأنها لا بد من أن تكون هناك لغة أصلية آرية أو هندية أوروبية اشتق منها لسان كل أفراد العائلة[٢].

استخلص دي جوبينو من هذا الكشف اللغوي أن المتكلمين بهذه اللغات ينتسب بعضهم إلى بعض أسوة النسب القائم بين اللغات التي يتكلمون بها وأنهم ينحدرون من جنس أصلي آري أو هندي أوروبي، وأن هذا الجنس هو الذي أنتج عبقرية زرادشت الدينية وعبقرية اليونان الفنية وعبقرية الرومان السياسية ويرجع الفضل إليه في جميع ما حققت الحضارة البشرية من أعمال وتقدم عبر تاريخ البشرية الطويل[٣].

ويبدو أنه في ظروف التقدم الصناعي الذي حققه الأوروبيون وما أتاحه هذا التقدم

(١) إبراهيم طلبة سلكها: نظريات نشوء الحضارات.

(٢) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

(٣) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

الصناعي للأوروبيين من التفوق على الشعوب الأخرى والتغلب عليها وقيام حركة الاستعمار الأوروبي للشعوب واستبداد الأوروبيين بها، أن لاقت نظرية الجنس مناخًا طيبًا للانتشار والقبول من المتغلبين، فأخذ الألمان بها وقالوا بالجنس الهندي ـ جرماني بدلا من الهندي ـ أوروبي، كجنس متفوق على غيره، كذلك أخذ الأمريكيون بنظرية الجنس في مطلع القرن العشرين وطالبوا بتقييد الهجرة إلى أمريكا للمحافظة على نقاوة الفرع الأمريكي الذي يعد شجرة الجنس النوردي![1].

وفي الوقت الذي يتخذ دعاة العنصرية في الحضارة الغربية البشرة البيضاء، دليلًا علي التفوق واعتبار ذلك علامة تفوق الجنس النوردي على غيره من الأجناس، فإن اليابانيين يستخدمون علامة بدنية مختلفة للدلالة على التفوق، تقوم على اعتبار خلو الجسم من الشعر وجعل الإنسان الأمرد أعلى من غيره باعتباره أبعد منزلة من القرد خلافًا للإنسان المشعر الذي يعد أقرب منزلة من القرد!!![2].

تقييم النظرية:

على أن هذه النظرية قد نقضت اليوم تمامًا، فانتساب اللغات بعضها إلى بعض لا يعني بالضرورة انتساب الناطقين بها بعضها إلى بعض، كما أن الحضارة لم تكن وقفًا على جنس دون جنس، فقد ظهرت الحضارة عند كثير من الشعوب التي تنتمي إلي أرومات مختلفة كالمصريين والهنود والسومريين وغيرهم، وظهرت بين الشعوب البيض والحمر مثلما ظهرت عند الشعوب الصفر، وليس بمكنة جنس أن يدعي نقاوته على مر التاريخ فضلا عن أن يدعي صناعة الحضارات[3].

٤- نظرية التناظر بين الحضارة والكائن الحي أو نظرية شبنجلر *Theory of the analogy of civilization to the organism Or Spengler›s theory:*

يري شبنغلر (*Spengler*)، وهو فيلسوف ألماني ١٨٨٠ ـ ١٩٣٦، أن الحضارات

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

كائنات تاريخية حية شأنها شأن الكائنات العضوية الحية، لها سياق واحد تسير عليه ودورة متشابهة تمر بها، فكما أن للكائن العضوي مولده وطفولته وشبابه ونضجه وشيخوخته، فإن للحضارات مثل ذلك، وبخصوص ولادة الحضارات ونشوئها يقول شبنغلر:

«تولد الحضارات في اللحظة التي تستيقظ فيها روح كبيرة وتنفصل عن الحالة الروحية الأولية للطفولة الإنسانية الأبدية، كما تنفصل الصورة عما ليس له صورة، وكما ينبثق الحد والفناء من اللامحدود والبقاء.. وتموت الحضارة حينما تكون الروح قد حققت جميع ما بها من إمكانات وعلى هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية وفنون ودول وعلوم ومن ثم تعود الحالة الروحية الأولية»[١].

تقييم النظرية:

والذي نلاحظه في نظرية شبنغلر أن التشابه الذي أقامه بين الحضارات والكائنات العضوية لا يتفق وطبيعة أطراف المقارنة، فتطور الحضارات يختلف عن مراحل نمو الكائنات العضوية لاختلاف طبيعتيهما، فبينما تكون الحضارات صنيعة الإنسان وثمرة جهوده الممثلة بمفاهيمه وأفكاره وقوانينه وأنظمته مضافا إليها عند بعض الباحثين المستوى المادي الذي حققه الإنسان في مجتمعه نتيجة درجة تجهيزه التكنولوجي، فإن الكائنات العضوية ذات طبيعة فسيولوجية حية مختلفة وما الضعف والقوة ثم الضعف الذي رآه شبنغلر نسقا متشابها بين الحضارات والكائنات العضوية في تطورها إلاّ تشابهًا ظاهريًا لا ينفذ إلى الأعماق، وقد أدى اعتقاد شبنغلر بوجود التشابه بين الحضارات والكائنات إلى اعتماد الروح في تفسير نشوء الحضارة، وجاء تفسيره لنشوء الحضارة غامضًا غموض المعرفة الإنسانية بطبيعة الروح من جهة وغموض حل مشكلة الوجود عند شبنغلر من جهة أخرى[٢].

٥- نظرية التحدي والاستجابة عند «أرنولد توينبي»

أرنولد جوسف توينبي *Arnold J. Toynbee* ولد في ١٤ أبريل ١٨٨٩ في لندن وتوفي في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٥. أهم أعماله «دراسة للتاريخ» وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين.

(١) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

(٢) المرجع نفسه.

وُلِدَ أرنولد تُوينبي في لندن، في عام ١٨٨٩، ودرَسَ اليونانية واللاتينية في أكسفورد، وتقلَّب في عدَّة مناصب، منها: أستاذ الدراسات اليونانيَّة والبيزنطيَّة في جامعة لندن، ومدير دائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية؛ وتُوفِّيَ في عام ١٩٧٥[١].

يعتبر توينبي التحديات عاملًا جوهريًا في نشوء الحضارات، منطلقًا من عبارة: «كلما عظم التحدي اشتدّ الحافز»[٢]، وكنا قد اعتبرنا الفكرة المعصِّبة العاملَ الحضاري الحاسم الذي لا يُنافَس، فإذا كانت حضارات تنشأ بتأثير ضغط التحديات، فإن الحضارة الإسلامية نشأت من فكرة، وليس من استجابتها المثالية لضغط تحديات معينة! إن التحدّي عامل محايِد تحدّد الاستجابةُ الإنسانية قيمتَه؛ سلبًا أو إيجابًا، وإذا لم يتوافر في مواجهته «المعادلُ» الذي يمنحه معناه، ويجعله فعلًا بين طرفين، كان قهرًا من طرف واحد. وتشكّل الفكرة الحضارية في صورتها الإنسانية الحية المعادلَ الإيجابي، والأرضية الخصبة التي تجعل التحديات محفِّزَة في أثرها الحضاري، في المقابل تعمل التحديات على صياغة الصفات النفسية لرجل الحضارة، وتحفّز غريزةَ الوجود، وتستفزّها للمقاومة، واستنهاض ما لديها من إمكانات وملكات؛ فردية وجماعية، كما أن التحدّيات محرّض قوي للعصبية الجماعية التي تحملها غريزة البقاء على الالتمام في وجه الأخطار[٣].

إن التحديات القاسية إما أن تقتل الذات الهشّة الضعيفة، أو تزيد من صلابة الذات المتماسكة، وتتماسك الذات، الفردية أو الجماعية، في حال امتلكت هدفًا تؤمن به وتدافع عنه[٤]، سواء كان فكرة أو مصلحة، فإذا اتحدت الفكرة بالمصلحة كان هذا أدعى إلى

(١) أرنولد توينبي، موقع المعرفة.

(٢) أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، الجزء الأول، الطبعة الأولى، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٠، ص٢٣٣.

(٣) بتول أحمد جندية: على عتبات الحضارة - بحث في السنن وعوامل التخلق والانهيار، الطبعة الأولى، سورية، دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص٤٣.

(٤) على الرغم من أن توينبي قد نبّه على أن العامل السحري والسرّيّ في تخلق الحضارات ليس «شيئًا مفردًا لكنه متعدد، هو ليس وحدة، لكنه علاقة»، وأن «الخلق وليد لقاء، وأن بدء الحضارة هو حصيلة تفاعل»، ينظر: توينبي، أرنولد: مختصر دراسة للتاريخ، ١/ ١٠١، ١١٢، تفاعل بين طرفين؛ أحدهما التحدي والآخر لم يشغل توينبي نفسه بتعقبه، بل مر به عرضًا على أنه حافز ينشط مع المصاعب مرة، يقول: «الصعوبة والحافز في بيئة معينة ينزعان إلى الازدياد بدرجة مماثلة»، نفسه، ١/ ١٤٧، ومرة أخرى هو هدف يتبلور بضغط التحديات، فكان جلّ ما حظي به من تنويه أن يمرّ بهذا التساؤل: «.. كيف يترتب على هزيمة ساحقة، اشتداد =

الاستقطاب، وفي اندفاع الذات لتحقيق هدفها تغدو التحديات عنصرًا خلاّقًا لاستفزاز طاقة الاندفاع القصوى، وعامل توحيد يستثير رابط العصبية الفطرية تجاه الأخطار وعوامل الاستئصال وتهديد الوجود[١]، بل إن التحديات القاسية قد تسلب الذات عدّتها كلها ولا تترك لها في معركتها ما تخسره[٢]، فتكون بهذا قد منحتها فرصة ثمينة لتحقيق ما تراهن عليه

= عزيمة جماعة حتى يصبح لنشاطهم هدف أعظم؟»، توينبي، أرنولد: مختصر دراسة للتاريخ، ١/ ١٨٣. وإذ نعتقد برأي توينبي بأن التحديات تسهم إسهامًا هامًا في توحيد الهدف، وبلورته، وإكسابه معناه في كثير من الأحيان، فإن الهدف ليس ثانويًا أو عرضيًا في عملية الحراك الحضاري، وإلا فلم تتفاوت الاستجابات في وجه التحديات وتتباين، فتكون ناجحة وفاشلة؟! إذًا، لا بد من وجود معادل ما يمنح هذا الشعب أو ذاك سلاحًا فعّالًا يواجه به تلك التحديات. يقول بن نبي: «فالمجتمع لا يمكنه مجابهة «الصعوبات» التي يواجهه بها التاريخ كمجتمع ما لم يكن على بصيرة جلية من هدف جهوده..»، بن نبي، مالك: شروط النهضة، ص٧١.. والواضح أن توينبي قد استشعر هذه الفقرة الضعيفة في حبكة نظريته، فحاول حلّ هذا الإشكال فيها من داخلها ودون سعي إلى تطويرها، تمثل هذا الحلّ في قانون «الأثر المتناقص»، فقد وضع توينبي ضابطًا شرطيًا لضمان فعّالية قانون التحدي، فـ«أعظم التحديات حفزًا يوجد في متوسط بين التفريط والإفراط في الشدة»، توينبي، أرنولد: مختصر دراسة للتاريخ، ١/ ٢٣٣. وكان توينبي من قبل قد صنّف التحديات في خمسة أصناف: البلاد الشاقة، والأرض الجديدة، والضربات، والضغوط، والنقم. فيكون التوسط هو عدم اجتماع هذه التحديات كلها جميعًا، لكي تعين عناصر القوة المتوافرة في تحقيق الاستجابة الظافرة.

(١) بعد أن استنتج الجابري أن العصبية عند ابن خلدون هي رابطة معنوية تقوم على المصلحة المشتركة، لاحظ أن ابن خلدون يربط «ربطًا مستمرًا بين العصبية والعدوان، فالعصبية عند صاحب المقدمة هي – كما قلنا سابقًا – قوة للمواجهة، لا تبرز ولا تشتد إلا عندما يكون هناك خطر يهدد العصبة في مصلحتها المشتركة»، الجابري، محمد عابد: فكر ابن خلدون – العصبية والدولة، ص١٧٢.

(٢) اشتدي أزمة تنفرجي، هو التعبير الملخص لهذه الحقيقة، ولذلك فإن معظم الثورات والنهضات ولدت بعد معاناة، كالنهضة الغربية، والثورة الفرنسية، وثورة الزنوج في أمريكة.. يصف ديورانت أثر حرب الثلاثين في ألمانية في القرن السابع عشر في استماتة الناس في الكفاح من أجل البقاء، يقول: «وانهارت الأخلاق والروح المعنوية على حد سواء، فإن اليأس المقرون بالإيمان بالقضاء والقدر دعا إلى الوحشية المقترنة بالسخرية. واختفت كل المثل الدينية والوطنية بعد جيل ساده العنف، وكان البسطاء من الناس يكافحون الآن من أجل الطعام أو الشراب، أو يقاتلون بسبب الكراهية»، ديورانت، ول: قصة الحضارة، ٣٠/ ٢١٤. وكما قيل اطلب الموت تمنح لك الحياة، وكذلك هو حال أمتنا في فلسطين والعراق... بل في كل الديار تواجه تحدياتها الداخلية والخارجية! ولعل صمود المقاومة الفلسطينية في غزة اليوم، وفي معركة الفرقان تحديدًا، أمام الآلة الإسرائيلية الجبارة أدقّ مثال على صحة قانون التحدي، وما منحته ظروف الحصار والقهر من فرصة لتطوير آليات النضال، وحشد الطاقات الداخلية، وتوحيد الصفوف في اتجاه هدف واحد، وبالاستناد إلى منطلق فكري واضح كان هو المعادل الجوهري في معركة الوجود تلك!!

باعتباره الخيار الوحيد الذي ينبغي التعلق به وإلا الفناء، فيتفرّد الهدف ويتوحّد، ويغدو اندفاع الذات أشدّ ومقاومتها أصلب، لأن المعاناة التي تفرضها التحديات، والضغط الذي يرافقها، يعملان على تعزيز البناء النفسي، وصناعة شخصية رجل الحضارة الذي يتحلى بالجلد والإحساس بالمسؤولية والإيجابية والمبادرة والأمل الواثق المستشرف للمستقبل.. كما تسهم المعاناة المقترنة بمعادل مكافئ في تهذيب الشخصية من الصفات السلبية المعيقة للفعالية والحركة؛ كاليأس واللامبالاة والكسل والتواكل..، وبذلك تصير التحديات نفسها عاملًا إيجابيًا من عوامل التخلق الحضاري والحركة. بل يذهب توينبي إلى أن التحديات الخلاّقة التي تصعّد من قوة الاستجابة، تشقّ الطريق أمام الأمة لاكتشاف وسيلة ذهبية أو ظافرة، هي الاستجابة الناجحة، أو الحل النموذجي للتحديات القائمة نتيجة تعاقب الشدّ والجذب من قبل التحديات وسلسلة الاستجابات الناجحة والفاشلة، ما يجعل الانكسارات مرحلة من مراحل الصعود، وحافزًا لاختبار المزيد من العوائق لتفاديها[١] وتجاوزها[٢].

يري أرنولد توينبي أن العامل الإيجابي في نشوء الحضارة ليس مفردًا ولكنه متعدد، وهو علاقة مشتركة تكون عند تعرض الإنسان للتحدي وقيامه بالاستجابة له، فالتحدي والاستجابة عند توينبي هو العامل الإيجابي الأقرب إلى تفسير نشوء الحضارة وإلى تقليل عطاء الإنسان في حالة والعقم في حالة أخرى[٣].

إذًا قد توجد البيئة وتنشأ حضارة وتوجد بيئة مماثلة ولا تنشأ حضارة، وسبب ذلك عند توينبي وجود التحدي والاستجابة في الحالة الأولى وعدم وجودهما في الحالة الثانية.

---

(١) أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ١/ ٣١٣-٣١٤. ذكرنا أن التحديات إن لم يتوافر لها المعادل الإيجابي تعزز الخصائص السلبية، وتكرّس عوامل الانحطاط بل الفناء أحيانًا. إن انتفاضة الحجر في فلسطين، وفلسفة العمليات الاستشهادية، مثالان واضحان للاستجابات الناجحة للتحديات الخطيرة التي تتهدد الوجود، ووسيلتان ذهبيتان للتعامل مع عوائق النضال والتحرير.. ومن التجربة الغربية، يبرز حدث انتخاب أوباما الأسود، رئيسًا في البيت الأبيض، واحدًا من تلك الوسائل الذهبية التي اكتشفتها الأمة الأمريكية لتمدّ في عمرها الآيل للأفول، وقد أنذرها باتريك بوكانن بالموت في كتابه «موت الغرب»، بسبب من التفكك الداخلي، فاعترفت بالداء وواجهته من خلال انتخاب قائد أسود يساعدها في تحقيق التماسك الداخلي، وامتصاص السلبية في الأمريكيين السود والأقليات العرقية المتنامية، وزرع الولاء وحس الانتماء فيها، وإشراكها في الحياة العامة للحد من عدائيتها الصريحة للمجتمع الأمريكي الأبيض.

(٢) بتول أحمد جندية: مرجع سابق، ص٤٦.

(٣) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

وقد استرشد توينبي في الوصول إلى نظريته بالقصص الذي يمثل جزًا من الفكر الديني عند الأمم وببعض الكتابات التي وضعها علماء البيئة الطبيعيون ويطبق توينبي نظريته «التحدي والاستجابة» في نشوء الحضارة علي النحو التالي:

يقول إن العالم كان يسوده أحوال مناخية معينة كانت فيها الصحراء الإفريقية والعربية في آسيا تنعم بهطول الأمطار الغزيرة التي أنبتت في أرضها الحدائق والأحراش وغطتها بالمزارع والنباتات، ثم حدث أن تغيرت هذه الأحوال المناخية وغدت الصحراء الإفريقية والعربية تعاني حالة من الجفاف الشديد على أثر تغير نظام نزول الأمطار الذي كان سائدًا فيها فتعرض الإنسان في هذه المنطقة نتيجة لذلك إلى تحدّ كانت استجابة الإنسان في هذه المنطقة لهذا التحدي مختلفة، فالذين آثروا الهجرة إلى منطقة أخرى تسود فيها الحياة المعيشية نفسها التي كانت سائدة في الوطن الأصلي كانت استجابتهم خلاّقة، أما الذين آثروا البقاء في الوطن على الهجرة واكتفوا بما تجود به أرضهم فقد انعدم عندهم أثر التحدي عليهم ولم تحدث عندهم الاستجابة فهم بنظر توينبي عرضة للانقراض[١].

أما الذين غيّروا موطنهم وغيّروا طريقة معيشتهم فقد واجهوا تحديًا مضاعفًا شحذ ملكاتهم وأدى إلى نشوء الحضارة على أيديهم في بلاد الرافدين ووادي النيل متمثلة بالحضارة السومرية والحضارة المصرية.

ويرى توينبي أن التحدي مثلما يكون ماديًا كالذي حدث عند تغيّر الأحوال المناخية فإنه قد يكون فكريا. ويري أن التحدي الحاضر ماثل في الحضارة الغربية ولكنه لا يزال حديثا إلى درجة لا يمكن معها التنبؤ بالاستجابة[٢].

تقييم النظرية:

والذي نلاحظه أن توينبي أقام نظريته على فرضية غير مقطوع بصحتها وصحة الكيفية التي استجاب الإنسان بها عند تغيّر الأحوال المناخية في منطقته، كما لا يذكر توينبي أنواع الاستجابات التي ترتبط بكل نوع منها ويذكر أن الناس ليسوا سواءً أمام التحدي حتى ولو كان التحدي واحدًا فهو يرى أن رد فعل هؤلاء يتصل في بعضه بالقوى النفسية الدافعة التي

(١) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

(٢) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

يستحيل تطبيقها ووزنها وقياسها وبالأحرى تقديرها تقديرًا علميا مقدما مما يوحي بأن الدور الأساس في التغيير هو الإنسان لا طبيعة التحدي، فالإنسان هو الذي يعيّن مسار الانتقال والتغيير حسب الحال الذي يكون عليها الإنسان وهي حال لا يصنعها التحدي ولكنه يستثيرها والاستثارة وحدها ليست كافية لعملية التغيير، فالتحدي ومثله الحاجة غير جديرين بتمكين الإنسان من الانتقال من مرحلة حضارية إلى مرحلة حضارية أخرى، إذ لا بد للإنسان حتى يحقق إنجازا ما أن يحوز الكفاية والقدرة اللازمة للقيام بذلك وإلاّ ظل حبيس الوهم والتخيل[١].

٦- نظريـة اتجـاه الزمن وتقويم الحركـة *Time trend theory and move ment calendar*:

تتفاوت آراء فلاسفة التاريخ في تحديد اتجاه حركته، وتقويمها، فرأي مال إلى الاعتقاد بالتقدم الصاعد[٢]، وأن الإنسانية تتجه عن طريق التراكم إلى تطور متتابع صاعد، وأن الجديد يفْضُل القديم لزومًا[٣].

وقد أسهم هذا الرأي في إثارة إشكاليات الحضارة العالمية أو العولمة، وقضية التراث والمعاصرة، وصراع القديم والجديد، بحسم مبدئي لصالح الجديد والمعاصر، بما أن الإنسان كلما كبر ازداد علمًا وحكمة، وكذلك هي الإنسانية في حركتها التاريخية! لا نختلف في أن التراكم برهان ممكن لقياس التطور، إلا أنه مقياس كمي صامت عن أية دلالة نوعية، إذ

(١) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

(٢) تبنّى هذا الرأي فلاسفة اليونان قديمًا، وبيكون وديكارت من بعدهم، وهذا التوجه هو الذي مهّد لفكرة التطور الديالكتيكي بصورتيها؛ المثالية، والمادية، وقد كان لآراء داروين في التطور الطبيعي والبقاء للأصلح أثر كبير في تعزيز الثقة بالتطور الصاعد، الذي تمثل عند نيتشه في فكرة السوبرمان، ينظر: زريق، قسطنطين: في معركة الحضارة، ص١٤٦، ١٥٢. كما أن نفوذ هذا الاتجاه قد اتسع مع ضغط العولمة، وسيطرة المركزية الغربية، واعتبار الغرب القمة التي استطاعت الإنسانية أن تبلغها في مسيرتها التاريخية، ينظر: نصر، محمد عارف: الحضارة - الثقافة - المدنية، ص٤٠. ويلتقط أدونيس هذا الموقف ويصير من أهم المروجين لنظرية التطور الصاعد في الحقل الأدبي، وسيكون لتنظيراته المستندة إلى هذا الوعي أثرها في تحديد مفهوم الحداثة والموقف من التراث، يقول: «إن الوضع الجديد متقدم، نوعيًا، في حركته العامة، على الوضع الماضي»، أدونيس، علي أحمد سعيد: الثابت والمتحول، ٣/ ٥٦.

(٣) بتول أحمد جندية: مرجع سابق.

إن المتأخر لا يتبنى كل ما جاء به المتقدم، والتراكم بحد ذاته هو فعل طبيعي لا بشري، على الرغم من أنه يتحقق بمسبِّب بشري، أما الفعل البشري والحضاري الحق فهو «الاختيار»، والاختيار فعل نفي وإثبات مفتوح المصادر يخضع لمؤثرات متنوعة؛ بيئية وذاتية وضرورية، قديمة وحديثة على السواء، وينتقي من مجمل المتراكم عبر الزمن والتاريخ. ومن إيجابيات التراكم أنه يقدم «للاختيار» مساحة أوسع من التجارب والخبرات، ولكن من طبائع النوع البشري المؤسفة أنه لا يتعظ بالتجارب السابقة ولا بخبرات الآخرين إلا بقدر ما يعتقد ويرغب، أما قيمة الخيار الناجم عن فعل الاختيار البشري فهي أمر نسبي خاضع لاعتبارات خاصة ومتغايرة تنفي إمكانية الحسم القبلي سلبًا أو إيجابًا. ومما يشهد بعدم تلازم قيمتي التطور والتراكم ما يقدمه التاريخ من نماذج متكررة لحضارات تسلم نفسها إلى الانطفاء بعد أن تبلغ قمة عطائها وتفوقها، وحضارات تتجاهل مقومات تحضّر سابقة وتهملها، ولهذا فلا يصح اعتماد التراكم برهانًا على التطور أو الجزم بحركة الزمن التصاعدية، لأن كل حضارة هي كائن فريد لا يتكرر، على الرغم من أنه يستفيد بهذا القدر أو ذاك من مخزون التجارب السابقة، ولأن الفكرة تلد نقيضها في دورة غير منتهية[١].

وفي مقابل نظرية التقدم الصاعد، ولدت نظريات يغلب عليها التشاؤم والعبثية والاستلاب، كالرأي القائل بالتأخر والنكوص والعودة إلى البدائية، أو بالعشوائية ونفي النظام، أو بالانقطاع التاريخي[٢]. وتبقى نظرية الدورات المتكررة[٣] هي التفسير الأسلم

(١) كهذا الـ«تعاقب التهكمي الساخر الذي ذكره أفلاطون، وهو تعاقب الملكية، فالأرستقراطية، فالديموقراطية، فالدكتاتورية، فالملكية»، ديورانت، ول: قصة الحضارة، ٣٢/ ٢٣.. إذ هو نموذج لتحقق قانون التداول أو الجدل في المجال السياسي، ومن أعجب العجب ذلك النموذج الاجتماعي لقانون التداول؛ حيث يرتد قبيل من أبناء الغرب وثقافة الحريات إلى ظاهرة العبودية؛ يروجون لها، وينشرونها، ويطلبون لها الشرعية؛ في الدورين: سادة وعبيد، لتتحول إلى تجارة رائجة تجد لها مسوّقيها وعملاءها وبضاعتها وطقوسها، وهي تقوم على التفاهم بين الطرفين، لا الإكراه، في كثير من الأحيان!!! يساعد البحث في *Google* باستخدام الكلمة المفتاح *Bondage* في توفير مادة غنية عن هذا الموضوع.

(٢) مؤدّى نظرية الانقطاع التاريخي هو نفي التراث التاريخي لجماعة من البشر، وإعادة هيكلتهم وفقًا لمعايير الترشيد والتحديث. ينظر: حبيب، رفيق: تفكيك الديموقراطية، ص٦٤ وما بعد، ٨٤ وما بعد.

(٣) للزمن حركتان – كما قلنا – كلية وجزئية، والحركة الكلية هي حركة التاريخ العام، وهي في الفهم الإسلامي تحديدًا، ذات اتجاه دائري يبدأ من مصدر واحد مطلق؛ هو الله تعالى، وإليه ينتهي. كما أنها حركة قهرية لا تدخل في حيز الإرادة الإنسانية، أما الحركة الجزئية فهي دورية، أي إن القيم فيها متبدلة على خط الزمن =

والأكثر استيعابًا لحقائق التاريخ، وكان ابن خلدون واحدًا ممن قالوا بها وتابعه فيها بعض من فلاسفة الحضارة الغربيين وطوروها من بعده، وهي في الوقت نفسه شرح لقانون التداول الذي ورد في القرآن الكريم، والسنة التي أعلن الله تعالى أنها ماضية في الأمم، إذ قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران/ ١٤٠]، وكثير من الآيات القرآنية تثبت المسار الدائري لحركة الوجود؛ الكلية والجزئية في المصدر والمآل والاتجاه، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء/ ٨]، وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر/ ٤٣]. ترى نظرية الدورات المتكررة أن التاريخ يتحرك حركة دورية يكشف تكرارها عن قوانينَ دائبةٍ وسنن ماضية تخضع لها الحركة، ونظامٍ مضبوط يوجه مسارها، ومحطاتٍ متكررة تقف عندها الحضارات لزامًا، وإذا كان التراكم هو معيار التقدم الصاعد في النظرية السابقة، فإن التشابه هو معيار التكرار وضابط الحركة في هذه النظرية[1].

ولكن لمَ نر أن هذه النظرية تفوق سابقاتها في الإصابة، وأنها جديرة بالتبني؟ الجواب أن قيمة هذه النظرية تتأتى، في نظرنا، من اشتمالها على قيم ومبادئ ضرورية لامتلاك تصور إيجابي يوقن بالقدرة على السيطرة على التاريخ وتوجيهه، وبناء منظومة فكرية فعالة فيما يتعلق بتفسير الظاهرة الحضارية والانخراط في أي مشروع نهضوي[2].

٧- النظرية المادية *Physical theory*:

تذهب النظرية المادية إلى أن الوجود مادة تطورت تطورًا ذاتيًا مستغنية عن عقل كلي يدبرها منكرة بذلك وجود خالق لهذا الوجود، وتقول النظرية أن المجتمع جزء من هذا الوجود المادي ينطبق عليه ما ينطبق على الكل، فهو يتطور بشكل حتمي وبصورة تقدمية تصاعدية فجائية من الحالة الأدنى إلى الحالة الأفضل[3].

= العام، وبالإمكان أن ترجع إلى لحظة السكون التي انطلقت منها، في حين أن خط الزمن العام لا يحمل قيمًا في ذاته وحركته ماضية بغض النظر عن القيم المتبدلة على جانبيه.

(١) بتول أحمد جندية: مرجع سابق.

(٢) بتول أحمد جندية: مرجع سابق.

(٣) محمد ضيف الله بطانية: مفهوم الحضارة.

وعندما تتعرض النظرية لبيان تغير المجتمع وانتقاله من حالة إلى حالة أخرى، تؤكد النظرية أن الفكر هو انعكاس المادة على الدماغ وأن المادة أصل الفكر في المجتمع، لذلك فإن النظرية تعتبر شروط الحياة المادية في المجتمع أصل الحياة العقلية فيه: أفكاره ونظرياته وقوانينه وآراؤه وأوضاعه السياسية، وعندما تتغير شروط الحياة المادية في المجتمع، وهي متغيرة برأي النظرية حتمًا لوجود المتناقضات في المجتمع، تتغير الحياة العقلية فيه.

أما شروط الحياة المادية للمجتمع، وهي مفهوم المجتمع عند النظرية، فهي الوسط الجغرافي والكثافة السكانية وأسلوب الإنتاج، والنظرية لا تقيم وزنًا للوسط الجغرافي والكثافة السكانية في تكوين المجتمع وتغييره وإنما تجعل الدور الرئيس لأسلوب الإنتاج، تقول النظرية:

«إن أسلوب الإنتاج يتألف من القوى المنتجة المتمثلة بالناس وأدوات الإنتاج ومعارف الإنتاج ويتألف من علاقات الإنتاج التي تظهر بين الناس أثناء سير الإنتاج. وتذكر النظرية أن التغيير يبدأ في أدوات الإنتاج وتفرض أن الأدوات كانت قديما السهام والحجارة ثم تغيرت إلى الأدوات المعدنية المحسّنة كالمحاريث والأنوال وغيرها. ثم تغيرت إلى الطاحونة والورش الصناعية، ثم تغيرت إلى الأدوات الكبيرة التي تدار بالكهرباء وغيرها من أشكال الطاقة، وتستنتج النظرية من هذه الفرضية التي طرحتها أن العلاقات بين الناس كانت تتغير في كل مرة كانت أدوات الإنتاج تتغير فيها ويتغير المجتمع تبعا لذلك، وأن البشرية قد عرفت خمسة أنواع من المجتمعات أو الحضارات هي المشاعية الابتدائية ثم الرق ثم الإقطاع ثم الرأسمالية ثم الاشتراكية حسب أدوات الإنتاج التي كانت في كل مرحلة»[1].

كان من بين من فسروا التاريخ بطريقة مادية الفيلسوف الألماني كارل ماركس، إذ كان يرى أن التاريخ نشأ وتطور نتيجة لعدد من الصراعات الطبقية، وذلك لأنه وجد أن كافة مراحل التاريخ كان بنيانها الصلب الذي اعتمدت عليه هو تلك العلاقات الاقتصادية بين الأشخاص فيه، تلك التي نجم عنها العديد من التنظيمات في النواحي الاجتماعية والسياسية والفكرية، أما عن الإنسان فقد كان يرى أنه نتاج لتلك البيئة التي يعيش فيها وتؤثر فيه، وهذا الأمر هو الذي يعمل على تحريك، وتغيير الحركة التطورية للتاريخ تلك التي تبلورت بداية

(١) محمد ضيف الله بطاينة: مفهوم الحضارة.

من المجتمع البدائي، مرورًا بالمجتمع العبودي (من العبودية) والاقطاعي وصولًا إلى الرأسمالية والاشتراكية.

تقييم النظرية:

وبعد هذا العرض لهذه النظرية يمكن القول إن النظرية وقعت في أخطاء، منها أن الفكر انعكاس المادة على الدماغ، وأن المادة أصل الفكر في المجتمع، وهو لا يصح، فوجود المادة وحدها لا يقوم به فكر إلا إذا توافر وجود المعلومات اللازمة لتفسير المادة، ولا بد أن تكون أول معلومات حصل الإنسان عليها قد جاءت من خارج المادة، مما لا يدع شكا في وجود خالق للمادة ولا صحة كذلك للقول بدور أسلوب الإنتاج ابتداءً في تغيير المجتمع وانتقاله من مرحلة حضارية إلى مرحلة حضارية أخرى، فقد تحول المجتمع العربي إلى مجتمع إسلامي، والمجتمع الروسي إلى مجتمع اشتراكي دون أن يسبق ذلك تغيير في أساليب الإنتاج، كما أن القول بدور المتناقضات في التطور الحتمي قول غير صحيح تماما، إذ يمكن أن تزول المتناقضات بين الأطراف المختلفة وتسوى الخلافات ولا يتحتم حدوث تغيير أو تبديل في المجتمع وإنما يغير المجتمع أنظمته وأفكاره إذا ظهر فسادها أو وقع المجتمع تحت سلطان خارجي أقوى منه ماديًا وفكريًا.

وهكذا تقدم النظرية المادية تفسيرًا لتغير المجتمع ونشوء الحضارة تبنيه على تطبيق ما يصلح للمادة على المجتمع ثم تبنيه على الفرضية والحتمية وهو مما لا يصح.

٨- النظرية الدينية *Religious Theory*:

النظرية الدينية التي ترى أن الحضارات والتاريخ صراع بين الخير والشر، والأخلاق والانحراف، وأن الله يتدخل في تشكيل التاريخ مباشرة أو بصورة غير مباشرة عن طريق الأنبياء والرسل؛ أي إن التاريخ من صنع الله أو أمر غيبي، وهو ما يؤمن به المسلمون والإسلاميون. ولذلك يعزون كل الهزائم والكوارث إلى الابتعاد عن الدين، وأنها لن تزول من دون العودة إليه[1].

(١) حسني عايش: النظريات التي تفسر التاريخ، مجلة الغد، بتاريخ: ٢٠/ ٩/ ٢٠١٥.
https://alghad.com

تقييم النظرية:

لا شك أن الله سبحانه وتعالى هو مدبر الكون وخالقه، وهو يسيره كيفما يشاء سبحانه لا يُسأل عما يفعل، وأن كل شيء في الكون مكتوب منذ الأزل ومحتوم، فالله يقضي ولا راد لقضائه. وقد أرجأنا هذه النظرية لتكون آخر النظريات بعد أن عرضنا أسباب فشلها، لاعتقادنا أن النظرية الدينية التي تأخذ بمبدأ أن كل شيء مكتوب ومُقدَّر منذ الأزل مع الأخذ بالأسباب التي خلقها الله وهيئها لنا هي الأصوب دون غيرها من النظريات الأخرى.

ما يعيب هذه النظرية غلو بعض أنصارها ومتسببيها في التأكيد على أن الحضارات وتاريخها محتوم منذ الأزل وكأن ليس للإنسان أي دور في تغيير مجرى الحياة، وهذا فيه نوع من التواكل والانصراف عن حقيقة التوكل التي تؤمن بان كل شيء بيد الله تعالى وبحكمته وقدره ولكن هذا لا يمنع من الأخذ بالأسباب إلى أقصى حد من أجل تفعيل دور الإنسان في بناء الحضارة ونشؤها وارتقائها، وكيف أنه حين لا يأخذ بهذا المبدأ يكون سببًا أو أحد عوامل تدهور الحضارة وانهيارها، فلا يريدن الله سلبيين ولكن إيجابيين، ليس كسالى بل عمليين، ليس متواكلين بل متوكلون عليه سبحانه وتعالى.

كافة هذه النظريات لا يمكن أبدًا أن تتناقض معًا في تفسيرات نشأة التاريخ الإنساني وطبيعة تطوراته، إنما كافة هذه النظريات هي نظريات تكميلية كل منها يكمل الآخر، وذلك لأن التاريخ هو عدة مراحل مرت بالإنسان أخضعته بالعديد من العوامل والظروف الاجتماعية والطبيعية والاقتصادية، ومن ثم فكافة هذه النظريات بالاتفاق معًا يفسروا التاريخ بداية من كارل ماركس وصولًا إلى فوكوياما.